«تاريخ الظلم العربي في عصر الانظمة الوطنية»: نقد جذري لأنظمة الطغيان العربية

جميع الانقلابيين في العالم العربي واجهوا ازمة شرعية واعتمدوا على الدول العظمى

الغرب لا يريد تدمير الاسلام والصراع اليوم ليس بين الغرب والشرق بل بين الانظمة الظالمة وشعوبها

حسام الدين محمد*

■ «تاريخ الظلم العربي في عصر الأنظمة الوطنية» كتاب عادل بشتاوي الصادر مؤخرا عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» يقدّم خبرات الكاتب الطويلة في مجالات الرواية والقصّ والاعلام والصحافة الاقتصادية والتكنولوجية في مؤلّف فريد من نوعه، فأسلوب الكاتب كثيرا ما يذكّرنا بالكتابة الكلاسيكية القديمة، التي يقمّشها كتّابها بالقصائد والقصص الشخصية والعامة، لكن مواضيعه ومطالعاته تنتمي في توجهها العام الى التحريض السياسي المباشر، غير ان عمقها يمتحّ من التحليل النقدي الحديث، بما فيه من احصاءات ومعلومات دقيقة.

واذا كان الموضوع الجارح والمؤلم للكتاب لا يسمح للناقد بترف الشغل المطوّل على الأساليب الأدبية التي اشتغل عليها الكاتب بقدر اشتغاله على موضوعه، فان التلخيص المحض لأفكار الكتاب لن يفيه حقّه، رغم ان قوة الكتاب، في رأيي، كامنة في هذه الأفكار بالذات وليس في طرائق ايصالها فحسب.

زمن الظلم

يعيد الكاتب أصول قضايا كتابه الى فترة نهايات السلطنة العثمانية ممسكا بما يشبه مروحة تاريخية مفتوحة على الكثير من التفاصيل والنقاط التي علينا استيعابها لفهم ما يدعوه بـ«تاريخ الظلم العربي في الانظمة الوطنية»، لكنه ما يلبث ان يأخذنا من حين لآخر في رحلة الى تفاصيل عميقة في التاريخ العربي الأقدم (كالصراع بين الأمين والمأمون ومصير ابو مسلم الخراساني وسيرة الملك بيبرس الخ...).

يستخدم الكاتب أدوات حرفته الأدبية للسير بنا لحلّ الغاز الحاضر التي لا تزال مربوطة بجذور الماضي، القريب منه والبعيد، والمثال الأول على ذلك اشارة بشتاوي مرارا الى احدى النقاط المهمة دون ان يسميها (انظر صفحات43، 46، 53) والتي نكتشف ان مقصوده منها هو دور المقدّس «الاسلام» وتأثير القادرين على توجيه اتباعه الهائل على العالم بحيث يعتبره الكاتب (في توصيف يجمع بين الطرافة والجدّية المأساوية ربما) «سلاح التدمير الشامل»!

«سلاح التدمير الشامل» هذا، كان، برأي الكاتب، يمثل رعبا كبيرا لكل من بريطانيا وفرنسا المتأهبتين للدخول الى الحرب العالمية الأولى «فلو استجاب واحد في المائة من المسلمين لدعوة الجهاد فإن ثلاثة ملايين مسلم رقم هائل خصوصا ان المسلمين في الهند كانوا من الأمم الحربية القوية» (ص 54)، ومن جهة اخرى فان الألمان ايضا كانوا «يسألون أنور باشا كل يوم متى سيعلن الشريف حسين الجهاد الأكبر على بريطانيا وفرنسا وروسيا».

ضمن هذا السياق يناقش بشتاوي التصوّر الشعبي الاسلامي لما سمي بالثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين وابناؤه معتبرا اياها «صدمة عربية كبرى» لجماهير المسلمين في العالم الذين تشكلت لديهم قناعة «بخيانة العرب للاسلام لا تزال في عقول الملايين من الهنود والباكستانيين والاتراك وغيرهم حتى الآن» (ص 59) كما يناقش بشتاوي ـ بطريقة تجيب وتفتح أسئلة بالوقت نفسه ـ اشكاليات علاقة الاسلام بالعرب والجروح المزمنة التي فتحتها قضية «الثورة العربية الكبرى» ضمن هذه الاشكاليات، والتخبّط الذي عاشته تركيا والعرب والمسلمون عموما بعدها.

تبدو معالجة الكاتب لقضايا كتابه كأنها تتابع اكتشافي لأرقام في معادلة لفكّ خزانة سرّية ضخمة، ومثال ذلك انه بعد الحديث عن الملابسات التي احاطت بالغاء المفهوم الجامع للمسلمين وهو الخلافة الاسلامية يشرح الكاتب الرابط بين هذا الالغاء والعديد من الهزائم (والانتصارات) على الجبهات العربية والاسلامية، فيلاحظ ان العثمانيين اختفوا من تركيا كأنهم لم يكونوا فيها لكنهم «ظلوا في العالم العربي وتجذّروا في السياسة والمجتمع والاقتصاد والجيوش» وان هذه المسألة سبب رئيس في انهزام البريطانيين في العراق (خلال الحرب العالمية الأولى) وانتصارهم من جهة اخرى في غزة ومرج بن عامر (ص 61).

يقارب بشتاوي الفكرة بطريقة اشكالية مثيرة تجعلها مفتوحة دائما على اكثر من اتجاه، او للتبسيط يمكننا اعتبارها مفتوحة على حالة تحمل بذرة نقيضها داخلها، فمقاربة بشتاوي لفكرة الجامعة الاسلامية تتبدى للقارىء احيانا مقاربة ايجابية، كما في شرحه لأسباب انهزام تاونشند وحملته البريطانية على العراق بأن جيش المدافعين «ضم عددا كبيرا من الجنود العراقيين قادتهم مجموعة من الضباط العراقيين المنضوين تحت لواء بني عثمان».

وهو ما يحصل ايضا في مقاربة الكاتب للفكرة العلمانية (كما في التجربة التركية مثلا) تتبدى ايجابية هي الأخرى، وكذلك الأمر في نقده للطبيعة العاطفية في الشخصية العربية، وفي خلاصته التي يقول فيها ان سر نجاح تركيا وسر اخفاق العالم العربي ان السلطنة العثمانية خرجت من بلاد العرب لكن من حكم بعدها هم عثمانيون فكرة وأساليب وكانوا «جزءا من المشكلة وكان الاكبر منها الدخول الى عمق العقل العربي وازالة الهياكل الثقافية والاجتماعية العثمانية واحلال هياكل جديدة تقوم على العلمنة والتحديث» (ص 65).

هل يمكننا اعتبار هذا تناقضا في أفكار الكتاب؟

من ناحيتي، أرى الى اعتبار ذلك شكلا من اشكال تلمّس الروائي لشخصيات الواقع/ظواهره المتناقضة، ففي الفكرة الاسلامية قوة هائلة لكنّ تركها مزجاة على عاطفيتها فحسب قادر على نكب العرب والمسلمين أكبر النكبات (كما على انتصارهم احيانا!).

الاسلام في روع الكاتب، على ما ارى، هو المسلمون انفسهم، ولو قدّر لهؤلاء تحديث عميق في مجتمعاتهم لكانت القوة الاسلامية تهذّبت واستفادت من منابعها دون الابتعاد عن السياق العام للعصر.

التأريخ بأدوات الرواية

«وذات يوم تراءى لعمر فخر الدين في منامه ان الرسول تبدّى له وأومأ اليه، أي اتبعني يا عمر، فمشى وراءه خطوتين او ثلاثا ثم افاق. وكانت تركيا استسلمت وقتها فأصدرت اليه القيادة العسكرية التركية أمرا بالاستسلام واخلاء مواقعه فرفض وراح يحصّن مواقعه، وظلّ يصد الهجوم تلو الهجوم بعد ثلاثة اشهر من توقف القتال في سائر جبهات الحرب العالمية الأولى. وانتشرت انباء هذا الصمود العظيم في اراضي الاسلام فضج الناس ورفعوا ايديهم الى بارئهم إي انصر فخر الدين من عندك يا ناصر الاسلام» (...) ولم يعد امام فخر الدين خيار فصلّى طويلا عند قبر الرسول ونشيجه يختلط بكلامه، ثم أنام سيفه امام الضريح وخرج الى بئر درويش ومعه نحو عشرة آلاف جندي وضابط (ص 58).

يرد هذا النص في سياق تحليل الكاتب للعوامل التاريخية المعقّدة التي شهدت الغاء الخلافة والانضمام الرمزي للعرب بزعامة الشريف حسين الى البريطانيين في حربهم على العثمانيين مرورا بالاحتلال البريطاني للعراق وفلسطين وسورية وما تلى ذلك من احداث خطيرة أدت الى تكوّن المنطقة العربية على الشكل الذي آلت اليه.

وهو مثال لأسلوب أدبي استخدم فيه عادل بشتاوي حرفته المهنية التي برع فيها منذ كتبه القصصية الأولى وصولا الى رواياته.

لكن هذا الأسلوب ليس إلا واحدا من أساليب عدة يستخدمها الكاتب، فاذا كانت قراءة التاريخ بعين الناقد المتفحص، والتنبيه على الأخطاء الاستراتيجية الجسيمة التي أدت بالعرب الى ما هم عليه لا تكفي، فان الكاتب، راغبا باعطاء كتابه شحنة قصوى من التأثير، يقوم احيانا بما يشبه الخطابة الحادة التي تقوم بنخز واستفزاز القارىء وتحريضه.

كما أن بشتاوي يقوم باستدخال شرائح وموتيفات من وسائط أدبية أخرى غير معتاد استخدامها في الكتب التاريخية، ففي شرحه لحالة «الحميّة التي اجتاحت الوجدان العربي بعد انقشاع الغيمة العثمانية» على حد تعبير الكاتب، يقدّم بشتاوي قراءة لمطلع قصيدة احمد شوقي «سلام من صبا بردى أرق»، بحيث يتضمن الفصل الذي يتناول هذه القضية شروحا من الكاتب لهذه القصيدة واستدخالا لها في الحالة النفسية العامة التي عاشها العرب آنذاك.

أغلب فصول الكتاب تشبه في تسلسلها الحبكات القصصية التي تقوم بالتقديم والتأخير ابتغاء لتشويق القارىء (كما في فصل «أنظمة الظلم» حيث يقوم بـ«فلاش باك» ثم يعود للمقارنة بالحاضر) او مفاجأته (كما في فصل «هرقلة الحكم» الذي ينتهي بطرفة لكوميدي امريكي سبق للكاتب ان اشار اليها داخل النص)، او تبسيط القضايا المعقّدة، او شرح الطبقات العدّة للفكرة، وغير ذلك...

وينثر بشتاوي في أرجاء كتابه كثيرا من التفاصيل التي قد تدهش القارىء غير المتخصص، من قبيل ان محمد علي وقبل مذبحته التي قضى فيها على المماليك هزم البريطانيين عام 1807، وان حجر رشيد عثر عليه الفرنسيون وتمكنوا من فك طلاسمه لكن البريطانيين هم من سرقوه ووضعوه في متحفهم الوطني، وان الجيش الفرنسي الذي هاجم سورية وانتصر على الجيش العربي في ميسلون كان يضم «عددا غير معروف» من الموارنة، وان اول مذبحة لليهود في اوروبا القرون الوسطى كانت على يد الانكليز عام 1190، وان سبب شهرة صلاح الدين عائدة الى وجود مؤرخ جيد هو بهاء الدين بن شداد وليس لأنه من قضى على الصليبيين وهو الأمر الذي يجب ان يعزى الى المماليك الخ...

اساءة قراءة النصوص

ولعلّ طول اشتغاله الحرفيّ على النصوص جعل الكاتب ينتبه الى قضية اهمال العرب ونخبهم عموما الى أهمية الدقّة في النص والدقّة في قراءته واستشفاف معانيه الباطنة والظاهرة، ويستنتج بشتاوي ان العرب ومسؤوليهم اساءوا قراءة التعهدات والقرارات الدولية وان ذلك أدى لكوارث حقيقية عليهم وعلى شعوبهم، ويستحضر على ذلك مثالي تعهدات مكماهون (1915) ووعد بلفور وقرار مجلس الأمن بانهاء حالة الحرب في الشرق الاوسط بعد حرب حزيران 1967.

ويشرّح بشتاوي هذه المسألة من خلال مقاربة رائعة لوعد بلفور وملابساته وكيف قرأه العرب واليهود، حيث لعب غياب «ال التعريف» فيه دورا كبيرا، كونه نص على «اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين» ولم ينصّ على اقامة «الوطن القومي» لليهود.

وهو الأمر الذي حصل لاحقا مع قرار مجلس الأمن عام 1967 حول انسحاب اسرائيل من الأراضي التي احتلتها، فيرى انه «لو رفع دبلوماسي عربي يده في مجلس الأمن وسأل لورد كارادون لماذا أسقط أل التعريف من كلمة «أراض» فربما كنا وفرنا على أنفسنا وعلى اليهود نهرا من الدم وتلالا من الذهب وستين سنة من التخلف وأربعين سنة من الظلم العربي»!

ولو «انتبه دبلوماسي عربي الى ما لم ينتبه اليه كارادون وقال حتى بعد صدور القرار بقليل ان بلاده وافقت على القرار الصادر بالفرنسية (لا لبس فيه لوجود حرف التعريف des) المعترف بها لغة رسمية الى جانب الانكليزية وليس على النسخة الانكليزية لكان هو الدبلوماسي المحنك في العالم وليس كارادون» (ص 88ـ89) والأمر نفسه ينطبق برأي الكاتب على رسالة مكماهون «فلو استفسر مفاوض عربي من مكماهون عن تفاصيل رسالته لاضطر مكماهون الى الاجابة ولتغيّر الوضع تماما ولكانت بريطانيا وافقت على أي شيء لأنها لم تملك خيارا آخر للأسباب التي تقدم ذكرها» (ص 89).

بهذه الطريقة الصادمة يقدم عادل بشتاوي قراءة لطريقة التعاطي العربية المفجعة مع الأحداث الخطيرة كما يقدّم درسا لا يمكن نسيانه في ضرورة التعامل المتأنّي مع النصوص والقرارات الدولية والمفاوضات.

على الرغم من اشتغال بشتاوي المستمر على فكرتي العقل والعاطفة والمثاليات والمصالح (احد فصول الكتاب يحمل عنوان: صراع المثاليات والمصالح) فان هذه الفكرة تبدو مثالية للقارىء كونها تعتبر النصوص الموقعة قادرة على الزام الأطراف المتصارعة، متجاهلة أن المصالح قادرة على لي أي نصّ وتأويله او تجاوز أي عقبات قانونية او شرعية (كما فعلت الولايات المتحدة وبريطانيا عند غزوهما الأخير للعراق مثلا)، لكنها من جهة أخرى تكشف ان الانتصارات والهزائم مرتبطة الى درجة هائلة بالوعي، وأننا، كعرب، ومن خلال تجاهلنا للتفاصيل والجزئيات والنصوص، قمنا بمساعدة اعدائنا مساعدة جمّة، وساهمنا في تراكب هزائمنا وتعقّدها.

وللأهمية الخطيرة لوعد بلفور وما جرّه من كوارث هائلة على العرب يقوم بشتاوي بتحليل تاريخي لأسباب صدوره فيستنتج انه كان مكافأة بريطانية لليهود نتيجة مساهمة عظيمة لهم في اقناع الولايات المتحدة الامريكية بالدخول في الحرب العالمية الأولى ضد المانيا وهو أمر يراه بشتاوي «على غاية عظمى من الحساسية حتى اليوم» لأن الأميركيين لا يريدون ان يقال انهم ضحوا بعشرات الآلاف من ابنائهم «كي يساعدوا امبراطورية تريد ان تدفع ثمن المساعدة باقامة وطن لليهود في فلسطين» (ص 96) كما ان يهودا كثيرين ايضا لا يريدون «ان يبدو وعد بلفور مكافأة على خدمة قدموها لبريطانيا، ولذا اختاروا الزعم بأن الوعد يعكس اقتناع بريطانيا بحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين» (ص 97).

ويرى بشتاوي ان وعد بلفور لم يعد بالكوارث على العرب والمسلمين فحسب بل كان كذلك بداية النهاية لبريطانيا وان «هدفها الخبيث» عاد عليها وعلى المسيحية وعلى اليهود وعلى العرب بالوبال العظيم.

الانقلابات ومأزق الشرعية

الجزء الثاني من كتاب بشتاوي مخصص لـ«أنظمة الظلم العربي»، وليس من المستغرب ان يقوم بتركيز على مصر وبسرد تاريخي للأحداث المهدة لحركة 23 تموز (يوليو) 1952 فقد «لعب الانقلاب المصري في العالم العربي» على حد قول الكاتب «الدور الحاسم الذي لعبه في ما بعد انقلاب اوغسطو بينوشيه في امريكا اللاتينية» (ص 120) ولأن «ثورته جلبت الى مصر تغييرا عميقا ما لبث ان عم معظم العالم العربي واستقدم اليه اطول حرب عرفها القرن العشرين وهي الحرب الباردة» (ص 121).

وهكذا فرغم انها لم تكن الحركة الانقلابية الأولى في العالم العربي فان حركة الضباط الأحرار بقيادة جمال عبدالناصر طبعت المنطقة بطابعها بحيث وسمت تاريخ العرب الحديث وأسست لكل ما سيحصل بعدها.

بينما ركزت أدبيات حركة عبدالناصر على الفساد الذي كان معششا في اجهزة الملكية المصرية ـ يوضح بشتاوي ـ فانها من ناحية أخرى تجاهلت الشعبية الهائلة التي كانت للإخوان المسلمين، فهل يلمح الكاتب الى ان حركة الضباط الأحرار كانت ضربة استباقية لامكانية استلام الاخوان المسلمين للسلطة؟

يقارب الكاتب ايضا مرحلة اضطهاد الشيوعيين المصريين التي بدأت عام 1954 ويستغرب ذلك لهشاشة قوّتهم ولكنه يشير الى ان ذلك مرتبط بمرحلة الحرب الباردة بين امريكا والاتحاد السوفييتي والى ان المجتمعات العربية دفعت ثمنا باهظا لها ظلما وفقرا وسلب حريات (136).

يترك الكاتب سؤال الاخوان مفتوحا ليبحث في ما يسميه «طوابير الانقلابات» التي بدأت في العراق ثم في سورية، ثم يشير الى أن عدد الانقلابات في البلدان العربية بلغت اكثر من عشرين انقلابا ويربطها ايضا بالصراع بين الجبارين.

في الفصول اللاحقة يقوم بشتاوي بتوضيح اكبر للصورة العامة للعالم التي شكّلت خلفية لما يجري في بلادنا بدء من حرب الكوريتين وحرب فيتنام وصولا الى استدراج الاتحاد السوفييتي لأفغانستان وسقوط نظام الشاه في ايران.

لكن الكاتب يعود بنا مرة أخرى الى التاريخ فيحكي سيرة المماليك ويركّز على الملك الظاهر بيبرس رافعا نقاطا شديدة الأهمية في طليعتها مسألتا الشرعية والبيعة.

يعتبر الكاتب ان الحاكم الذي يأتي الى السلطة بالقوة يعاني دائما من مسألة افتقاده للشرعية ويقدّم للتدليل على الفكرة بسيرة بيبرس الذي اغتال السلطان قطز واغتصب عرشه و«مع ذلك كان قلقه شديدا لأنه كان يعرف انه اغتصب الملك» و«كان يملك كل شيء لكن ما ملكه لم يعطه الشرعية» (ص 156). يقوم بيبرس باكتشاف احد اعمام العباسيين فيستقدمه للقاهرة ويبايعه الناس باسم المستنصر الذي يقوم بعد ذلك بتولية بيبرس مصر والشام فيبايعه الناس على ذلك.

فهم بيبرس بيعة الناس له باعتبارها تكليفا شرعيا له فدك حصون الصليبيين وقضى على الحشاشين واصلح امور المملكة وسك العملة ونظم البريد وسيّر السفارات الى ملوك اوروبا وآسيا وأمر بالعمران فكثّر في عهده. ويعلّق بشتاوي على ذلك بالقول ان «الظاهر بيبرس يستطيع فرض نفسه على الناس ورميهم في السجون واختطاف حاضرهم ومستقبلهم وقسرهم على أداء يمين الولاء له كما فعل الكثيرون من المستبدين في هذا العصر لكن هذا العجمي الذيم لم يتقن العربية كان يعرف ان يمين الاكراه باطل فالبيعة ليست سوى صك تعاقدي بين الحاكم والشعب ولهذا سميت بالبيعة لأنها عمليا صك يبيع المحكوم بموجبه ولاءه للحاكم في مقابل تعهد الحاكم بتحسين معاشه وفتح ابواب الرزق امامه وتمكينه من العمل والانتاج وبناء الحضارة والمساهمة في تمويل الخزانة» (ص 158).

يعتبر بشتاوي ان الشرعية هي «أم المشاكل التي واجهت جميع الانقلابيين في كل العالم العربي» وان وضعهم القانوني الضعيف هو الذي أدى لاستناد هذه الأنظمة على الدول العظمى في العالم (يسميها بشتاوي «البيعة الخارجية») لكي تتحكم بالداخل، وعندما تتفاجأ القوى العظمى التي تدخلّت لانشاء ودعم هذه الانظمة العربية بالنتائج وتكتشف عدم امكان اقلمة سياساتها مع الواقع العربي فان مصالحها تدفعها للعودة الى المنطقة المرة تلو الأخرى للمساهمة في تفتيت النجوم التي ساعدت هي في نشوئها لكن مسارها أدى لانقلابها ضدها «عن طريق ضربها مباشرة او وضعها في سكة الاصطدام مع النجوم الوليدة او الصنيعة» (ص 159).

يستعيد عادل بشتاوي فرانكو، دكتاتور اسبانيا الراحل، ليناقش فكرة الشرعية وحاجة الدكتاتور لحلها وهو ما أدى بحالة فرانكو الى قرار باعادة الملكية الى البلاد قبل وفاته، فيما يلاحظ ان الطغاة العرب لا يزالون يعمهون في غيّهم، فبدل الاقرار الواقعي بانتهائهم فإنهم يحاولون الاستمرار من خلال توريث ابنائهم الحكم رغم انهم زعموا الانقلاب على الملكية واشكال الحكم «الرجعية»!

ينطلق الكاتب في الفصل اللاحق («أنظمة الظلم») لعمل جردة تاريخية مؤسسة على سؤال واحد: أي عصر هو أسوأ عصور العرب في التاريخ؟ وبعد رحلة شاقّة ومؤلمة يستنتج ان الأنظمة الوطنية العربية جعلت من هذا العصر الذي نعيشه أسوأ عصور العرب على الاطلاق بما في ذلك القرن الثالث عشر الذي غزا فيه الصليبيون العالم العربي وخسرت الأمة العربية معظم الأندلس، لكن المماليك استطاعوا التصدّي للصليبيين والمغول ويجلوهم عن بلادنا.

ويسرد الكتاب مطولّا أسباب اعتبار هذا العصر أسوأ الأنظمة العربية وهو ما يمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

1ـ انقطاع التواصل بين العرب لأول مرة في التاريخ، فقد أغلقت الأنظمة «الابواب بين العرب وفرضت الفيز والتأشيرات وحولت الحدود الى سدود منيعة» (ص 189).

2ـ الهزائم الكبيرة فـ«من نحو 250 حربا شهدها العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية انتصرت الدول في بعضها مرة وانهزمت في اخرى الا نحن فهزمنا في كل واحدة منها (ص 191).

3ـ «نماذج السفك والكبت والظلم واختطاف الأمم والشعوب (...) كانت فريدة في التاريخ» (ص 192).

4ـ قيام الأنظمة بحروب بشعة ضد جيرانها وشركائها في الدين كما فعل النظام العراقي السابق ضد ايران في حرب استمرت 7 سنوات و 11 شهرا وكانت «ثالث اكثر الحروب التي عرفها العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية دمارا واكثرها دموية» (ص 198) وأدت الى «مليون قتيل ومليون مصاب بعاهات» وكلّفت 350 مليار دولار. وهنا يستفيض بشتاوي ليصل الحديث الى احتلال العراق والنتائج الكارثية التي تأدّت عنه، كما لو أنه يقول ان سياسات الانظمة العربية هي التي جلبت الاحتلال للأرض العربية مجددا: «عندما بدأت القوات الاميركية غزو العراق (2003/3/20) ... كان العراق دار دورة اقتصادية وثقافية كاملة فزال معظم ما قام خلال السبعينات والثمانينات» (ص 199)، و«بنهاية نحو سنتين من الاحتلال الامريكي كان الاقتصاد العراقي دخل مرحلة الاحتضار» (ص 200)

5ـ نشر الشمولية والسلطة المطلقة والاستبداد والخوف وتدمير أي معارضة داخلية في العالم العربي والمنطقة. وقد دخل الخوف، برأي بشتاوي، من بوابة الهزيمة «ومن بوابة الخوف دلفت الأنظمة لتحقيق النصر على الشعب»، و«عبر بوابات الثكنات والمعسكرات والقلاع القديمة بدأ التدجين العظيم ولا يزال مستمرا» (ص 213).

رعاة الفكر التصادمي

«مستقبل المواجهة بين الغرب والاسلام» هو عنوان الجزء الثالث من الكتاب، وباختياره هذا الموضوع ليشكل ثلث كتابه المخصص لـ«تاريخ الظلم العربي في عصر الانظمة الوطنية» يجعلنا نفترض ان المواجهة مع الغرب هي بأهمية المواجهة مع هذه الانظمة، لكن تحليل بشتاوي لا يقدّم المعادلة بهذه البساطة، فهو يقوم بتجريد «المواجهة» مع الغرب من عدد من أساطيرها المؤسسة في التفكير العربي، نافيا وجود مسار رابط بين غزو الصليبيين وبين مراحل الاستعمار الحديثة، فلكل حدث سببه التاريخي والمنطقي.

كما يقوم الكاتب بتفكيك لنظرية المؤامرة بادئا اياه من جذرها اللغوي وصولا الى معانيها السياسية، معتبرا وجود سوء فهم عربي لمعنى هذه الكلمة عند الغربيين.

العامل الوحيد الذي يجده بشتاوي مناسبا لفهم العلاقة بين العالمين هو الخوف المتبادل بينهما، الذي يقوم أحد الطرفين كل مرة، وبانتهازية، باستثماره لتنفيذ أغراض سياسية، كما تفعل الأنظمة العربية في شحنها للشباب العربي بالكره للغرب، ثم تقتيلهم وعرضهم على الشاشات للقول انها تحارب الارهاب، وكما تفعل الادارة الامريكية التي وظفّت الخوف الامريكي من العرب والمسلمين لتحقيق هدفها في غزو العراق.

لكن بشتاوي يعتبر الكراهية العربية للغرب القائمة على التاريخ وحده ظلم كبير لهذا الغرب وان «امعاننا في هذا الغشيان العاطفي والتخشب الفكري والتيبس في حقبة زمنية زالت ظلم لنا ولأبنائنا وأحفادنا قبل جميع الآخرين، وأهم أسباب اخفاقنا في فهم الخطاب الدولي الموجه لنا» (ص 241).

بحرارة خطابه السابق الذي عرّى الأنظمة وكشف ضعفها وخواءها وضرورة سقوطها، يبدأ الكاتب هذا الفصل بخطاب لا يقلّ حرارة كاشفا الخطايا الشائعة في مقاربة مفهوم الغرب ككلّ لا ثابت لا يتغيّر، ويؤكد ان الحضارة الاوروبية الحديثة ودخولها للبلدان العربية لا يشبه بحال غزوة الصليبيين، فهو يعتبر ان اوروبا قطعت حبل السرة الذي كان يربطها بأوروبا القبائل الجرمانية والنورمانية الوحشية سواء في فرنسا او في انكلترا.

يقول بشتاوي ان الاستبداد والقتل في بلادنا لم يمارسا على يد فرنسا وانكلترا بل على يد العثمانيين، كما يشير الى الدور الذي لعبته الشعوب الاوروبية في مكافحة قرارات حكوماتها باحتلال بلدان الاخرين، وهذا فارق كبير يؤشر الى الطور الذي بلغته الحضارة الانسانية والغربية تحديدا.

واذا وافقنا الكاتب الرأي في اختلاف الشعوب الاوروبية حاليا عنها في أيام الصليبيين، فان قضية ان سلطات بريطانيا وفرنسا لم تمارسا القتل والاستبداد في بلادنا مسألة فيها جدل، وأول ما يمكن ان يردّ به القارىء هو الاحالة الى احتلال الجزائر والعنف الهائل الذي مورس ضد الجزائريين من قبل الجيش والادارة الفرنسيين هناك، اما في التمييز الذي يقيمه بين الاوروبيين والامريكيين، وخصوصا ادارة بوش الحالية، فهو نفسه يشير في كتابه الى ان فرنسا سعت لتسليم امريكا حربها في فيتنام، بما يشبه الوارث والموروث. ان مرحلة الاستعمار، في ظني، حتى لو تم تغليفها بالكثير من القيم الاخلاقية الانسانية، كانت ادخالا قسريا لشعوب العالم في طور جديد، مما أدى الى كوارث تاريخية، اجتماعية وانسانية هائلة.

وبغض النظر عن نتيجة هذا النقاش فان ما يحاول عادل بشتاوي فعله، باعتقادي، هو اخراج منطق المواجهة بين الاسلام والغرب من الحالة العاطفية التي تحيطه والملوءة بمشاعر الخوف والكره اللاعقلانية ودافعه في ذلك انه «عندما لا نركز الا على السلبي فان السلبي يتراكم في ذاكرتنا من دون ان ندري ويتحولّ هذا التراكم الى موقف لا نستطيع ان نقدم برهانا اكيدا يسوّغه لأنه قرار عاطفي» (ص 253)، وهو في معارضته للسلبية في التعامل مع هذه المسألة يقدّم الكثير من الوقائع التي تعاكس النظرة السائدة في اعلامنا وبين شعوبنا عن الغربيين ومن ذلك ان في اوروبا 17 مليون عربي ومسلم «خرجوا من بلادهم والفقر يتعقبهم فصاروا في غير بلادهم رجال الاعمال والمستثمرين وأساتذة الجامعات، ومعظمهم صار قادرا على مساعدة أسرته في وطنه الأول» (ص 253).

يقول الكاتب ان تركيز الاعلام العربي على أخبار متفرقة لعربي اهين او ضرب وتجاهل قصص النجاح «وهي بمئات الآلاف» سببه ان ذلك يشجع على المقارنة المفزعة بين ما يتعرّض له المواطن العربي في بلاده وما توفّره اوروبا وامريكا له من طرق للنجاح. لكن الكاتب يدرك ان «عكس ستين سنة من التجهيل والحقن وبناء الفكر التصادمي ليس بالأمر الهين لكنه لن يكون مستحيلا» (ص 253).

مستقبل الأمة

يقوم بشتاوي في هذا الفصل بتقديم جردة للنكبات التي تعرّضت لها العلاقة بين العرب والمسلمين، ويعود بطريقة جديدة لاستقراء فكرة الخلافة وتأثيراتها على مصائر الشعوب الاسلامية وخصوصا في شبه القارة الهندية، وينبهنا الى الخيط الواصل بين هذه المصائر والمآلات التي آلت اليها الشعوب العربية والاسلامية فالعمليات الاستشهادية في فلسطين انتقلت الى كشمير ثم افغانستان فالشاشان ومن ثم الى العراق فالسعودية والكويت وغيرها.

في سرده للمآخذ التي تأخذها الشعوب الاسلامية على العرب ينتقل من القتل (حرب العراق لايران) الى الظلم والقسوة والكذب والتكاسل، لكنه يعتبر اكبر المآخذ هو «الاخفاق الهائل في تحقيق النهضة التي كانت ستكسب الاسلام القوة التي اكتسبها الغرب» (ص 369).

«التنمية المستنامة» واحد من اقسام هذا الفصل ومن اكثرها متعة وفائدة لأنه يناقش أسباب فشل التنمية بطريقة تنمّ عن خبرة اقتصادية خطيرة ـ وهي احدى خبرات بشتاوي العديدة ـ مقارنا في البداية بين حاجة الدول المتقدمة الهائلة للشباب، والفائدة العظيمة التي يمكن ان يؤدوها لهذه الدول، وبين ضيق الدول العربية بشبابها ودفعهم للعطالة ومضايقتهم في معاشاتهم واحوالهم واعتبارها اياهم عبئا عليها: «اذا كانت هناك أمة شابة في العالم فهي الأمة العربية فمعظم عدد العرب المقدّر بنحو 330 مليون نسمة دون سن السادسة والثلاثين، او نحو 244 مليون نسمة، مما يعني انهم الشرائح التي يعتبرها وزراء المالية في الدول المتقدمة مثالية. هل يمكننا ان نتصور ما الذي تستطيع دولة عملاقة مثل الولايات المتحدة ان تفعله لو توافر لها 200 مليون شاب؟» (ص 274).

وهو يرى ان هذه الحالة تجعل من الشباب العرب قنبلة موقوتة تنتظر اشعال فتيلها، ويحدد بشتاوي العبء الحقيقي في هذه الدول وهو «الانظمة الظالمة التي ترى في الشباب العبء الحقيقي» (ص 274).

لا يكتفي الكاتب بنقده الكبير للأنظمة بل يشير الى الدور المتواطىء والسلبي والسيء لرجال الاعمال العرب التي «يشتكون من القوانين في بلادهم كي لا يعترفوا بأن تلك القوانين هي التي اتاحت لهم جني مئات المليارات» (ص 276). ويقول ان الفرق «بين كثيرين من رجال الاعمال العرب ونظرائهم في كوريا او الصين وتايوان ان الفئة الثانية تستدين من مراكز التمويل العالمية لكي تبني المصانع في بلادها فيما ينقل بعض اصحاب الفئة الاولى عائدات مبيعات النفط من بلادهم الى مراكز الاستثمار الاوروبية والاميركية لشراء العقارات والمطاعم» (ص 276)، ولا يكتفي هؤلاء بذلك بل ان «رجال اعمال من الامارات ومصر والسعودية وقطر وغيرها ذهبوا بعيدا في تعاونهم لحماية استثماراتهم الخارجية وصاروا يروجون لعصر بوش وشارون في بيت العرب علنا وبالفعل لا بمجرد القول» (ص 277) والنتيجة التي يستخلصها هي «ان الناتج الاجمالي للتخلف الاقتصادي العربي ليس مسؤولية الانظمة فقط فرجال اعمال كثيرون يشاركون الانظمة المسؤولية في عملية التخريب الاقتصادي الهائلة»، ويكتشف بعد احتساب نسبة النمو ومتوسط معدل التضخم ان «العالم العربي يعيش في العموم واحدة من اطول مراحل الركود في العالم اذ تزيد الآن على 21 عاما» (ص 277).

والنتيجة في قراءته لمستقبل المواجهة بين الاسلام والغرب هي ان الغرب لا يريد تدمير الاسلام وان الصراع الكبير اليوم ليس بين الغرب والشرق والمسيحية والاسلام بل بين الانظمة الظالمة وشعوبها.

وفي استقرائه لما ستفعله الانظمة قبل انهيارها الأكيد يقول انها ستحاول البرهنة «على ان المعركة ليست بين العدل والظلم بل بين السلطة والارهاب» (ص 294)، ولكنه يرى انه «اما ان تتحرك الانظمة فتلغي نفسها، او ان تماطل بالريش والمكياج فيتحرك الشعب فيلغيها» (ص 298)، لكن «التحدي الذي يواجه العرب اليوم ليس في تغيير النظام فقط بل في تغيير الفكر الذي خلقته الانظمة في العقول» (ص 300).

* * *

يمكننا ان نقول ان «تاريخ الظلم العربي» ليس تأريخا بالمعنى الاكاديمي للكلمة، ولا يحيل بالتالي الى السرد «الكرونولوجي» للأحداث، فميزته انه يقدم خيطا ناظما يعيد تشكيل المجريات التاريخية انطلاقا من محاكمة ظاهرة ظلم الانظمة الوطنية العربية لشعوبها وقراءة لاشكالاتها وتحليل اسباب سقوطها القادم.

وهو ما يتأدّى بنا الى نوع جديد من «التاريخ». تاريخ يمتدّ من الماضي وينسحب على مستقبل هذه الانظمة وهو لذلك ايضا دعوة لصناعة تاريخ لا تلحق به صفة الظلم.

واذا كان انجبال قراءة الكاتب للأحداث بطين الخبرة الشخصية (الروائية والاعلامية والاقتصادية والسياسية الخ...) واضحا ومفهوما، غير أن حميّته وغيرته الهائلتين على البشر، وحماسه ضد الظلمة والطغاة، امر قد يحيّر بعض القرآء في كتاب ينهض على هجاء العاطفة وتوقير العقل. رد بشتاوي على ذلك: «العاطفة خصلة حميدة ما بقيت في محيطها ولم تهيمن على العقل، ومن يحاول ان يقتل العاطفة في نفوس العرب فإنه يحاول ان يقتل الدين ولا يعرف ماذا سيحل محلها» (ص 289).

وأغلب ظني ان الكاتب اراد، من خلال تجربته الأدبية والاعلامية الطويلة، تجنّب المآل المؤسف لكثير من الكتب التحليلية الثقيلة التي تتوجه لنخبة قليلة من المهتمين بشؤون التاريخ السياسي، أو كما يقول المتصوفة، لم يكن كتابه مصنوعا لخاصّة الخاصة. وفي مشروعه هذا فان الاساليب الادبية والبلاغية التي ارتآها لكتابه عكست رغبة في تعميم التأثير وتوسيع مجاله وايصال مؤلّف في قضايا شديدة التعقيد وتتناول عصرا بأكمله.

* * *

خلال قراءتي للكتاب تذكرت تعريفا غريبا للشعر اجترحه الشاعر والتشكيلي السوري نزيه ابو عفش الذي كتب في احدى مقالاته عن فتاة صبية من قريته اصابها مرض مفاجىء وشخّص الطبيب موتها فدفنت من يومها ليكتشف مارّ في اليوم التالي صراخا مكتوما طالعا من بطن القبر، فالف